الفصل الثاني

الاجتماع الإنساني والمدينة الفاضلة

تمهيد:

لخص الفارابي فلسفته كلها في كتاب: «آراء أهل المدينة الفاضلة» الذي خطه بعد أن عرك الحياة وشاخ في العلم وبرز في الفلسفة، ويقول ابن أبي أصيبعة[1]:

(ابتدأ بتأليف كتاب المدينة الفاضلة، والمدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة، والمدينة الضالة ـ ببغداد وحمله إلى الشام في آخر سنة ثلاثين وثلاثمائة، وتممه بدمشق في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة. وحرره ثم نظر في النسخة بعد التحرير فأثبت الأبواب ثم سأله بعض الناس أن يجعل له فصولاً تدل على قسمة معانيه فعمل الفصول بمصر في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة).

ونستطيع أن نصف الفارابي بأنه: «وحدوي» يؤمن إيماناً مطلقاً بالوحدة في الإله والكون.. في الإنسان والمجتمع.. في الفكر، والفلسفة.

فالموجود الأول عقل وعاقل ومعقول، وهي فيه معنى واحد، وذات واحد وجوهر واحد غير منقسم.

والكون بأجزائه المختلفة يسير في تناسق عجيب ويخضع لترتيب بديع ويحكمه ناموس واحد.

---

(١) عيون الأنباء جـ ٢ ص ١٣٨.

والإنسان هيكل عضوي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى..

والفلسفة واحدة، ولا تناقض بين أفلاطون وأرسطو، فالحقيقة الفلسفية واحدة، وحيث إن الحق لا يناقض الحق، فالدين والفلسفة وجهان لعملة واحدة!!..

ومن هنا فإن وحدة الحقيقة الدينية والفلسفية، ووحدة الكون في شموله، والإنسان في بدنه تلح علينا ـ بصدق وموضوعية ـ أن يكون المجتمع البشري واحداً.. وهذا هو قمة الاجتماعات الإنسانية الكاملة..

ويبدأ كتاب «آراء المدينة الفاضلة»: بالبحث في الإلهيات ويركز على جلال الله وكماله ووحدة ذاته وصفاته دون أن يجعل من الوجود الإلهي مشكلة فكر تحتاج إلى دلائل وبراهين.

ثم يبحث في الموجودات وكيفية صدورها ومراتبها، ويتكلم في النفس الإنسانية وقواها وأخيراً يعرج على الرؤى والأحلام ويقدم التفسير الفلسفي للوحي ورؤية الملك.

وبصحة هذه الآراء في الإله والكون والإنسان، وصدق الاعتقاد فيها تتبلور آراء أهل المدينة الفاضلة، تلك المدينة التي تقوم على ضرورة العمران البشري وتعاون بني الإنسان، وتحتاج إلى رئيس تجتمع فيه مجموعة خصال فطرية ومكتسبة، تمكنه من أداء دوره في قيادة المجتمع الراشد وصولاً إلى السعادة الكاملة.

ويختم الكتاب بأبحاث في المدينة الجاهلة والضالة أجاد في وصفها، وتحليل اتجاهاتها، وعرض لأفكار تعتبر الآن من أحدث المذاهب الاجتماعية...

ذاك موجز نرجو الله أن يوفقنا لبسطه لتوضيحه والتعقيب عليه..

(أ) العمران البشري:

بدأ الفارابي حديثه عن المدينة الفاضلة ببيان احتياج الإنسان إلى الاجتماع والتعاون، وذهب إلى أن كل واحد من الناس مفطور على الاجتماع كضرورة يفرضها عجز الفرد عن القيام بكل حاجاته بنفسه، ويزكيها كمال الإنسان الذي لا يتحقق إلّا بالاجتماع البشري.

وقد عبر أرسطو عن تلك القضية بقوله: «الإنسان بالطبع كائن اجتماعي» ودرسها ابن خلدون تحت عنوان «العمران البشري». والحكمة المشهورة عن الفلاسفة تقول: «الإنسان مدني بالطبع»، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم.

ولنستمع إلى الفارابي وهو يعرض هذه القضية فيقول[1]:

(لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال الذي لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية إلّا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه فيجتمع مما يقوم به جملة الجماعة لكل واحد جميع ما يحتاج إليه في قوامه وفي أن يبلغ الكمال).

وذكر الفارابي آراء أهل المدن الجاهلة والضالة في ذلك، وهي اعتقادهم أن العمران البشري قائم على تنازع البقاء، واعتبارهم أن التصارع قانون يحكم الكون بما فيه، فالموجودات متضادة، وكل واحد منها يلتمس إبطال الآخر ولذا نرى كثيراً من الحيوان يثب على كثير من باقيها يبغي فسادها من غير أن ينتفع بشيء من ذلك نفعاً ظاهراً..

والإنسان خاضع لذلك القانون العام، كل إنسان ينقض كل إنسان، وكل واحد ينافر كل واحد.

ثم يحكي الفارابي عن أهل المدن الجاهلة (أن هذه[2] حال طبيعة

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ط السعادة ص ٧٧، ص ١٠٨.

(٢) آراء أهل المدينة الفاضلة ط السعادة ص ٧٧ ـ ١٠٨.

الموجودات وهذه فطرتها، والتي تفعلها الأجسام الطبيعية بطبائعها هي التي ينبغي أن تفعلها الحيوانات المختارة باختياراتها، وإرادتها، والمروية برويتها. ولذلك رأوا أن المدن ينبغي أن تكون متغالبة متهارجة لا مراتب فيها ولا نظام ولا استئهال بختص به أحد دون أحد لكرامة أو لشيء آخر، وأن يكون كل إنسان متوحداً بكل خير).

وهذه الطبيعة المتنافرة، لا ترتبط إلاّ عند الضرورة ولا تأتلف إلاّ عند الحاجة، فإذا حصل الترابط والتآلف فإنه يكون قائماً على أساس أن أحدهما قاهر والآخر مقهور. ولا يدوم إلاّ ريثما الحاجة، فإن زالت عاد التنافر والعداء، وهذا هو الداء السبعي من آراء الإنسانية ـ على حد وصف الفارابي. .

وتتمثل ضرورة التعاون البشري أو الحاجة إليه في مجموعة روابط عامة هي:

١ ـ الاشتراك في النسب أو العصبية.
٢ ـ التحالف والتعاقد.
٣ ـ تشابه الخلق والشيم الطبيعية.
٤ ـ اتحاد اللغة واللسان.
٥ ـ الجوار.

وهناك مجموعة روابط جزئية تربط بين جماعة يسيرة أو نفر قليل منها:

١ ـ طول التلاقي.
٢ ـ الاشتراك في طعام، أو شراب.
٣ ـ الاشتراك في الصنائع.
٤ ـ الاشتراك في شر يدهمهم وخاصة متى كان نوع الشر واحداً وتلاقوا فإن بعضهم يكون سلوة للبعض.

فإن تميزت طائفة عن أخرى بأحد هذه الروابط، إما قبيلة عن قبيلة، أو مدينة عن مدينة، أو حلف عن حلف، أو أمة عن أمة كان

شعارها التغالب والهرج ودوام الفرقة، وتحددت لديها مفاهيم خاصة عن العدل والخشوع.

فالعدل عند أهل المدن الجاهلة ـ استعباد القاهر للمقهور، وأما سائر ما يسمى عدلاً ـ كما في البيع والشراء ورد الودائع وأشباه ذلك ـ فأمور تنشأ لأجل خوف كل من كل، واصطلاح يحدث عن ضعف كل من كل، وبمرور الزمن وتكافؤ الفئتين يزول الصراع ويحل التعاون، وتنشأ أجيال، لا تدري كيف كان الحال الأولى، فتحسب أن العدل في اتّباع الشرائط الموضوعة والأعراف المشهورة في البيع، والشراء، وما جانسهما..!!.

أما الخشوع، وهو اعتقاد ربوبية الله للكون، والقيام بأمر تقديسه، وتسبيحه، فإن أهل المدن الجاهلة يرون أن هذه كلها أبواب من الحيل، والمكائد لمن عجز عن المغالبة، والظفر في حلبة الصراع الدائم، فالظلم من شيم النفوس، ومتى عجز الإنسان عن المجاهرة بالصراع لجأ إلى المخاتلة، فيتمسك بهذه الأشياء ويواظب عليها ليبلغ الشيء الذي آمله من كرامة ورئاسة، وأموال ولذات، هذه هي طبيعة البشر عندهم.

أما هؤلاء الذي يسبّحون، ويقدّسون لا لشيء من هذه الخيرات المزعومة فهم مغرورن مخدوعون، أشقياء، حمقى..!!.

ويحكي الفارابي رأي أهل المدن الجاهلة فيمن يُظهر مدحاً لهؤلاء العابدين الخاشعين، أو يثني عليهم ويشيد بهم فيقول[1]:

(غير أن كثيراً من الناس يظهرون مديحه لسخرية به، وبعضهم يقويه لنفسه في ألّا يزاحم في شيء من الخيرات، بل يتركها ليتوفر عليه وعلى غيره، وبعضهم يمدحون طريقته، ومذهبه خوفاً أن يسلبهم ما عندهم من ليس هو على طريقته، وقوم آخرون يمدحونه ويغبطونه؛ لأنهم أيضاً مغرورون مثل غروره).

---

(١) المصدر السابق ص ١١٦.

والأمر الجدير بالملاحظة أن الفارابي لم يعقب على هذه الآراء ولم يبين صحيحها من سقيمها واكتفى بقوله:

(فهذه وما أشبهها هي آراء الجاهلية التي وقعت في نفوس كثير من الناس عن الأشياء التي تشاهد في الموجودات).

(ب) أنواع الاجتماع وقانونه وغايته:

قسم الفارابي المجتمعات البشرية إلى نوعين:

١ ـ الكاملة.

٢ ـ غير الكاملة.

ولكل نوع أقسام فالكامل ثلاثة:

١ ـ عظمى: وهي اجتماع الإنسانية قاطبة في المعمورة.

٢ ـ وسطى: وهي اجتماع أمة في جزء من المعمورة.

٣ ـ صغرى: وهي اجتماع أهل المدينة في جزء من مسكن أمة.

وما عدا ذلك من اجتماعات فهي غير كاملة، ومثل لها الفارابي باجتماع أهل القرية أو المحلة (الحي) أو السكة (الشارع) أو المنزل.

وأدنى مراتب الاجتماع الذي يُرجى منه الخير والكمال هو اجتماع أهل المدينة، ولهذا اقتصر الفارابي على شرح مقاصده وبناء عمده وإرساء قواعده؛ لأنها اللبنة الأولى للاجتماعات الوسطى والعظمى، فالمدينة الفاضلة هي أساس الأمة الفاضلة وهي بدورها ركن المعمورة الفاضلة.

والقانون الذي يحكم هذه الاجتماعات هو التخصص وتوزيع العمل، فإن الناس مختلفو الفِطَر متفاضلو الهيئات، وهم مراتب وعلى قمتها الرئيس بما يمتاز به من الفطرة والطبع وما اكتسبه من الحكمة وفصل الخطاب، ودونه طوائف من البشر كل بحسب استعداده إلى أن نصل إلى الأسفلين الذين يخدِمون ولا يُخْدَمون.

ويسوق الفارابي تشبيهاً لذلك بالبدن فيقول[1]:

«والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وعلى حفظها عليه، وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى وفيها عضو واحد رئيسي وهو القلب، وأعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يعقل بها فعله ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس، وأعضاء أخر فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة فهذه في المرتبة الثانية، وأعضاء أخر تفعل الأفعال حسب غرض هؤلاء الذين في هذه المرتبة الثانية ثم هكذا إلى أن تنتهي إلى أعضاء تخدم ولا ترؤس أصلاً».

ويفرق الفارابي بين أعضاء البدن وأجزاء المدينة بأن القوى التي لأعضاء البدن هي بالطبع، أما نظائرها في أجزاء المدينة فهي ملكات وهيئات إرادية.

ويذهب الفارابي إلى أبعد من ذلك فيجعل الكون كله قائماً على هذا القانون، ويقسمه إلى السبب الأول والموجودات الثواني والمادة والصورة والاسطقسات... إلخ! وهذه المراتب المختلفة مؤتلفة منتظمة كلها تقتفي غرض السبب الأول.

والهدف العام للاجتماع هو التعاون على نيل السعادة التي تتحقق بأشياء مشتركة ينبغي أن يعلمها جميع أهل المدينة الفاضلة وهي:

١ ـ معرفة السبب الأول وجميع ما يوصف به.
٢ ـ معرفة الأشياء المفارقة للمادة وصفها وفعلها.
٣ ـ علم الأفلاك وما يوصف به كل واحد من الجواهر السماوية.

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٧٩.

٤ ـ علم الكون والفساد ما يجري في الأجسام الطبيعية من إحكام وإتقان وعناية وعدل.
٥ ـ دراسة الإنسان وقواه النفسية واتصاله بالعقل الفعال.
٦ ـ دراسة أوصاف الرئيس الأول والرؤوساء الذين ينبغي أن يخلفوه وكيف يكون الوحي.
٧ ـ الوقوف على دعائم المدن الفاضلة والسعادة التي تصير إليها نفوسهم.
٨ ـ الإلمام بالمدن الضالة والمنحرفة وعقائدها الفاسدة ومصيرها المظلم.

والناس أمام هذه المعرفة على تفاوت: فالحكماء يعرفونها ببراهين وبصائر، ومن يليهم يعرفونها على ما هي اتباعاً للحكماء وتصديقاً لهم وثقة بهم، وعامة الناس يعرفونها بالمحاكاة والأمثال والتقريب بل إن العامة أنفسهم على مراتب فبعضهم يعرفها بأمثال قريبة وبعضهم يعرفها بأمثال بعيدة، وتختلف هذه الأمثلة من أمة لأمة ومن مدينة لأخرى ولذلك يمكن أن يكون أمم فاضلة ومدن فاضلة تختلف مللهم تبعاً لاختلاف الأمثلة، وطريقة التقريب إلاّ أنهم جميعاً يؤمنون سعادة واحدة بعينها ومقاصد واحدة بأعيانها ـ على حد تعبير الفارابي.

وبقيام كل إنسان بعمله الخاص به وعلمه المنوط بمرتبته يكتسب هيئة نفسانية فاضلة كلما داوم عليها صارت أقوى وتزايدت فضيلتها وكثر اغتباط المرء بجميل فعاله إلى أن يبلغ حد الاستغناء عن المادة ويصل إلى مرتبة يحددها الفارابي بقوله: «فلا تتلف بتلف المادة ولا إذا بقيت احتاجت إلى مادة».

وإذا حان الوقت كي تتلخص النفس من بدنها مضت إلى مراتب السابقين واتصلت كل نفس بشبيهتها في النوع والكمية والكيفية اتصال معقول بمعقول وكانت اللذة أكثر والغبطة أشد والمحبة أبقى، وازدادت لذات السابقين واللاحقين معاً، ويعلل الفارابي ذلك بقوله[1]:

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٩٦.

(لأن كل واحدة تعقل ذاتها مراراً كثيرة فتزداد كيفية ما تعقل ويكون تزايد ما تلاقى شبيهاً بتزايد قوة صناعة الكتابة بمداومة الكاتب على أفعال الكتابة، ويقوم تلاحق بعض ببعض في تزايد كل واحد مقام ترادف أفعال الكاتب التي بها تتزايد كتابته قوة وفضيلة).

ويعتقد الفارابي أن نفوس كل طبقة تلتقي كنفس واحدة، سواء أكانت تلك الطبقة في الماضي أم الحاضر أم المستقبل.. ولنستمع[1]:

(وملوك المدن الفاضلة الذين يتوالون في الأزمنة المختلفة واحداً بعد آخر كلهم كنفس واحدة، وكأنهم ملك واحد يبقى الزمان كله، وكذلك إن اتفق منهم جماعة في وقت واحد إما في مدينة واحدة وإما في مدن كثيرة فإن جماعتهم كملك واحد، ونفوسهم كنفس واحدة، وكذلك أهل كل رتبة منها متى توالوا في الأزمان المختلفة فكلهم كنفس واحدة يبقى الزمان كله، وكذلك إن كان في وقت واحد جماعة من أهل رتبة واحدة وكانوا في مدينة واحدة أو مدن كثيرة فإن نفوسهم كنفس واحدة (سواء) كانت تلك الرتبة رتبة رئاسة أو رتبة خدمة).

* * *

(جـ) رئيس المدينة الفاضلة:

مدينة الفارابي الفاضلة تعقد آمالها على الرئيس، فهو قمتها الشامخة، والمهيمن على شؤونها كلها، ويكتسب الأفراد شرفهم بمقدار قربهم منه وصلتهم به وهم جميعاً رهن إشارته يؤمونه ويقتفون أثره.

وهو بالنسبة لهم مثل القلب للبدن «يتكون أولاً[2] ثم يكون هو السبب في أن يكون سائر أعضاء البدن، والسبب في أن يحصل لها قواها

---

(١) المصدر السابق ص ٩٣.

(٢) المصدر السابق ص ٨١.

وأن تترتب مراتبها، فإذا اختل منها عضو كان هو المرفد[1] بما يزيل عنه ذلك الاختلال كذلك رئيس هذه المدينة ينبغي أن يكون هو أولاً، ثم يكون هو السبب في أن تحصل المدينة وأجزاؤها».

ويشترط الفارابي أن يكون الرئيس بالفطرة والطبع ثم بالهيئة والملكة الإرادية معداً للرئاسة.

وخصال الفطرة والطبع هي:

١ ـ أن يكون تام الأعضاء التي تساعده بقواها على إنجاز الأعمال الخاصة بها.
٢ ـ جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له، فيلقاه بفهمه على ما يقصده قائله وعلى حسب الأمر في نفسه.
٣ ـ جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه وبالجملة لا يكاد ينسى.
٤ ـ جيد الفنطة ذكياً إذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له على الجهة التي دل عليها الدليل.
٥ ـ حسن العبارة يواتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره إبانة تامة.
٦ ـ محباً للتعليم والاستفادة، سهل القبول لا يؤلمه تعب التعليم، ولا يؤذيه الكد الذي ينالهُ منه.
٧ ـ غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح.
٨ ـ محباً للصدق وأهله ومبغضاً للكذب وأهله.
٩ ـ كبير النفس محباً للكرامة.
١٠ ـ يهون عنده الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا.
١١ ـ محباً للعدل وأهله مبغضاً للظلم وأهله يعطي النَصَف من أهله ومن

---

(١) في المختار: (رفده) أعطاه ورفده أعانه وبابهما ضرب و(الإرفاد) أيضاً الإعطاء والإعانة، و(الرفادة) بالكسر خرقة يرفد بها الجرح وغيره.

غيره، ويحث عليه غير صعب القياد لا جموحاً ولا لجوجاً إذا دعي إلى العدل.

١٢ ـ قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل، جسوراً عليه مقداماً غير خائف ولا ضعيف النفس.

وصفات الهيئة والملكة الإرادية (المكتسبة) هي:

١ ـ أن يكون حكيماً.

٢ ـ عالماً حافظاً للشرائع والسنن والسير التي دبرها الأولون للمدينة محتذياً بأفعاله كلها حذو تلك بتمامها.

٣ ـ له جودة استنباط فيما لا يحفظ عن السلف، فيه شريعة ويكون فيما يستنبطه من ذلك محتذياً حذو الأئمة الأولين.

٤ ـ له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين.

٥ ـ له جودة روية وقوة استنباط لما سبيله أن يعرف في وقت من الأوقات الحاضرة من الأمور والحوادث التي تحدث مما ليس سبيلها أن يسير فيه الأولون، ويكون مؤملاً بما يستنبطه صلاح حال المدينة.

٦ ـ له جودة ثبات ببدنه في مباشرة أعمال الحرب.

وباجتماع هذه الخصال الفطرية والمكتسبة يترقى عقله إلى رتبة العقل المستفاد الذي يتلقى عن العقل الفعال مباشرة وبلا واسطة، ويكون هذا الإنسان حكيماً فيلسوفاً بما يفيض منه إلى عقله المنفعل، ونبياً منذراً بما يفيض منه إلى قوته المتخلية، وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة وهو الرئيس الذي لا يرأسه إنسان آخر أصلاً وهو الإمام ورئيس المعمورة من الأرض كلها.

وقد استشعر الفارابي صعوبة تحقق هذه الشروط وندرة وجودها مجتمعة في شخص واحد ولذلك قال: واجتماع هذه كلها في إنسان واحد عسر فلذلك لا يوجد من فطر على هذه الفطرة إلاّ الواحد بعد الواحد والأقل من الناس.

ومن هنا قبل الفارابي مبدأ تعدد الرؤوساء بشرط أن يكون واحد منهم حكيماً، ومتى اتفق في وقت ما أن توافرت سائر الشروط وليس من بينها الحكمة بقيت المدن الفاضلة بلا ملك، ولن تلبث أن يجرفها الطوفان!.

(د) أضداد المدينة الفاضلة:

تقدمت الصورة التي رسمها الفارابي لمدينته الفاضلة، غير أن الأشياء تتميز بأضدادها وتستبين بمقابلها، وهذا ما حدا به إلى أن يُلقي ضوءاً على المدن المضادة لها ويجيد في وصفها وإبراز معالم حياتها.

وهذه الأضداد هي:

١ ـ المدينة الجاهلية:

وهي التي لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم، وغايتهم في الحياة هي سلامة الأبدان واليسار والتمتع باللذات ومظاهر العظمة، وهي تنقسم إلى:

ـ المدينة الضرورية وهي التي قصد أهلها الاقتصار على الضروري مما به قوام الأبدان من المأكول والمشروب والملبوس والمسكون والمنكوح.

ـ المدينة البدالة وهي التي قصد أهلها أن يتعاونوا على بلوغ اليسار والثروة وذلك أقصى أمانيهم في الحياة.

ـ مدينة الخسة والشقوة وهي التي قصد أهلها التمتع باللذة من المأكول والمشروب والمنكوح وبالجملة إيثار الهزل واللعب.

ـ مدينة الكرامة وهي التي قصد أهلها أن يتعاونوا على أن يصيروا مكرمين ممدوحين مشهورين بين الأمم ذوي فخامة وبهاء.

ـ مدينة التغلب وهي التي قصد أهلها أن يكونوا القاهرين لغيرهم، ولذتهم في الغلبة وسعادتهم في الظفر.

ـ المدينة الجماعية وهي التي يعمل أفرادها ما شاء لهم هواهم دون رقيب أو قانون.

٢ ـ المدينة الفاسقة:

اعتقادها هو اعتقاد أهل المدينة الفاضلة في الله وفي الموجودات الثواني والعقل الفعال، لكن أفعال أهلها هي أفعال أهل المدينة الجاهلية.

٣ ـ المدينة المبدِّلة:

لها ماض مجيد في العقيدة والعمل، فآراؤها وعملها قديماً مثل أهل المدينة الفاضلة، غير أنها تبدلت ودخلت فيها مبادىء هدامة وانساقت إلى أفعال الجاهلية.

٤ ـ المدينة الضّالة:

هي التي تعتقد في الله والموجودات اعتقادات فاسدة، ويخدع رئيسها الناس بإدعاء أنه يُوحى إليه.

* * *

وأهل سائر هذه المدن تنقلب المفاهيم لديهم، وتكتسب نفوسهم هيئات رديئة تزداد مع الزمن، ويتمكن المرض من نفوسهم حتى إنهم ليلتذون بخبيث فعالهم وقبيح خصالهم وسوء آرائهم، ويضرب الفارابي لهم مثلاً بمرضى الأبدان الذين لا يحسون طعم الأشياء الحلوة ويستمرئون مر المذاق، ويؤكد أن من المرضى من لا يشعر بعلته، ومنهم من يظن مع ذلك أنه صحيح، ويقوى ظنه بذلك حتى لا يصغي إلى قول طبيب أصلاً، كذلك من كان مريض النفس لا يشعر بمرضه، ويظن أنه فاضل صحيح النفس ولا يصغي إلى قول مرشد ولا معلم!.

ويذهب بالفارابي خياله إلى أن يجعل مصير هؤلاء الجاهليين إلى العدم والانحلال إلى مادة الاسطقسات[1] على مثال ما يكون عليه البهائم والأفاعي.

(١) أسطقس كلمة يونانية بمعنى العنصر.

تحليل وتعقيب

(أ) مدينة الفارابي الفاضلة تقوم على ركنين:

١ ـ عقائد.

٢ ـ رئيس.

فهو يرى أن الآراء والعقائد الصحيحة في الكون والإنسان والحياة هي طريق بناء المجتمع وسعادة أفراده، ويتولى تطبيق هذه المبادىء وحمل الناس عليها رئيس له من المؤهلات الفطرية والمكتسبة ما يمكنه من أداء رسالته.

ولا يقدم الفارابي منهجاً للحياة ولا دستوراً للحكم ولا قانوناً للمعاملات ولا يشرح نظام تربية ولا خطة اقتصاد، ولعل صمته عن ذلك يوحي بأن مرد الأمر كله إلى الفيوضات التي يتلقاها الرئيس عن العقل الفعال، ويتولى هو بدوره ترجمتها لإرشاد الناس إلى ما ينبغي عمله إذ الرئيس عنده فيلسوف ونبي..!.

وقد يكون من المفيد أن نقول إن هذا الجمع بين الفلسفة والنبوة، هو ظاهرة فكرية لدى الفارابي خاصة وفلاسفة المسلمين عامة وقد انسلقوا إليها لأسباب منها:

١ ـ الإكبار للعقل الإغريقي والاقتناع بعصمة الحكمة اليونانية.

٢ ـ إحساس فطري يدفع إلى تحقيق الانسجام بين العقيدة الدينية والنظر العقلي.

٣ ـ محاولة لتجنب السخط العام من المجتمع الإسلامي، غير أن هذا الدافع ليس بالرئيسي، فالفارابي حين وفق ما كان يخشى سلطة ولا اضطهاداً، فقد عاش متقلباً بين قصور الأمراء، وكان ابن سينا شيخاً رئيساً، ثم إن هذا التوفيق ما كان يمتاز بالوضوح حتى يقرب من العامة.

(ب) أكد الفارابي ضرورة الاجتماع الإنساني والتعاون البشري لبلوغ أقصى الكمال، وقد يكون من المناسب أن نذكر أن الفلاسفة يقررون ذلك على صورة دليل عقلي؛ لبيان حاجة الناس إلى الرسالة والنبوة ويبنونه على مجموعة مقدمات هي:

الإنسان مدني بالطبع أي محتاج إلى التمدن وهو الاجتماع.

وهذا الاجتماع قائم على قانون متفق عليه مبني على العدل.

وذلك القانون لا بدّ له من شارع متميز عن الآخرين بخصوصية فيه من قبل خالق الكل.

وتلك الخصوصية هي البعثة والنبوة.

ولا بدّ من أمر يدل على أن شريعته من عند ربه.

وهذا الأمر هو المعجزة.

وقد علق ابن خلدون بقوله[1]:

(وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته، فأهل الكتاب والمتبعون للأنبياء قليلون

---

(١) المقدمة ص ٢٧.

بالنسبة إلى المجوس الذين ليس لهم كتاب فإنهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب).

ويريد ابن خلدون أن يصل إلى أن إرسال الرسل محض فضل إلهي، وليس بواجب عقلي كما هو مذهب السلف من الأمة.

(جـ) إن أعظم أنواع الاجتماع ـ عند الفارابي، وهو اجتماع الإنسان في المعمورة قاطبة ـ هو فكرة لم تسبق إلى عقل فيلسوف من قبل وجاءت متقدمة على الفكر السياسي الحديث الذي ينادي بالدولة المتعددة القوميات والمنظمات الدولية.

وتلك الفكرة هي أثر من آثار الإسلام الخالد الذي حقق في دنيا الناس دولة شملت العالم من أقصاه إلى أقصاه في ظل سياسة راشدة وعدالة تامة، وحفظت للإنسانية قرائحها وجادت عليها بحضارة أذهلت المفكرين وأثرت في مجرى التاريخ الإنساني وحضارة العالم الحديث.

وقد أجاد الفارابي في وصف المدينة الضالة والمنحرفة وإبراز ملامح فكرها وأهداف حياتها وقد أشار إلى عدة ظواهر تستحق التسجيل:

١ ـ حديثه عن القهر والقوة وتنازع البقاء لا يختلف عن قول توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م) بأن الإنسان ذئب للإنسان وأن الكل في حرب ضد الكل، وأن استشعار القوة يحملان الفرد على الاستئثار بما يستطيع الظفر به من خيرات الأرض وإن أعوزته القوة لجأ إلى الحيلة.

٢ ـ روابط الاجتماع التي ذكرها نجد فيها مشابهة لرأي جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) في العقد الاجتماعي.

٣ ـ لفلسفة القوة عند نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) صلة تقارب مع آراء أهل المدينة الجاهلية كما ذكرها الفارابي.

٤ ـ إن صراع الطبقات وظاهرة الاستعمار والاتجاه المادي في الحياة كلها

معان عرفتها المدن الجاهلية قديماً وحديثاً[1].

هذا وإن ما يؤخذ على الفارابي هو استعراضه لتلك الآراء والاتجاهات دون التعقيب عليها ومناقشتها وبيان مفاسدها.

(د) إن أسوأ ما ذهب إليه الفارابي هو رأيه في المصير الإنساني وقوله بوحدة النفوس السعيدة، والعدم للنفوس الجاهلية وصيرورتها إلى مادة العناصر مثل البهائم والأفاعي.

ومن المعروف أن الفلسفة الإسلامية وقفت في قفص الاتهام مدينة بالخيانة العظمى في ثلاث مسائل هي:

١ ـ قدم العالم.

٢ ـ عدم علم الله بالجزئيات.

٣ ـ إنكارهم لبعث الأجساد.

بالإضافة إلى سبع عشرة مسألة أخرى حكم عليهم فيها الإمام الغزالي بالبدعة والفسوق.

والحقيقة المشهورة أن البعث الروحاني هو رأي جمهور الفلسفة الإسلامية وحقيقته عودة الروح إلى تجردها عن علائق المادة واتصالها بعالم العقول.

والعقيدة الإسلامية هي أن البعث مصاحب للبدن، فهو ممكن عقلي أخبر به المعصوم في نصوص صريحة لا تقبل تأويلاً ولا اجتهاداً[2]

هذا وقد فطن ابن طفيل لتلك القضية عند الفارابي فقال[3]:

---

(١) في الباب الثالث من الرسالة تجد دراسات نقدية لكل من عقد روسو ومادية ماركس وقوة نيتشه.

(٢) في تفصيل تام واستقراء كامل لمذاهب الفلاسفة والمتكلمين في البعث كتبت في رسالتي للماجستير «الروح بين الإسلام والفلسفة» باباً عن الروح في اليوم الآخر.

(٣) حي بن يقظان ـ تحقيق وتعليق د. أحمد أمين ص ٥٧.

(وأما ما وصل إلينا من كتب أبي نصر فأكثرها في المنطق، وما ورد منها في الفلسفة فهي كثيرة الشكوك فقد أثبت في كتاب «الملة الفاضلة» بقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لا نهاية لها بقاء لا نهاية له، ثم صرح في السياسة المدنية بأنها منحلة وصائرة إلى العدم وأنه لا بقاء إلّا للنفوس الكاملة، ثم وصف في كتاب «الأخلاق» شيئاً من أمر السعادة الإنسانية وأنها إنما تكون في هذه الحياة التي في هذه الدار. ثم قال عقب ذلك كلاماً هذا معناه «وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات عجائز»، فهذا قد أيأس الخلق جميعاً من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة إذ جعل مصير الكل إلى العدم.

وهذه زلة لا تقال وعثرة ليس بعدها جبر.

وبعد ـ فإن مدينة الفارابي الفاضلة هي آراء عقل وليست نظم سلوك، وعقائد قلب وليست مناهج حياة، وقد أجمع مؤرخو الفلسفة الإسلامية على أنها مدينة خيالية ومملكة عقلية، قال دي بور[1]: وآراء الفارابي كلها في هذا الباب تبدد من خلال ضباب فلسفي.

وقال دكتور إبراهيم مدكور[2]. فنحن إذن أمام مدينة سكانها قديسون ورئيسها نبي، وهي مدينة لا وجود لها إلّا في مخيلة الفارابي.

وقال دكتور جميل صليبا[3]: فهي حلم لذيذ ولكن الأحلام ليست دائماً خالية من الحقائق وكثيراً ما يفضل الخيال على الحقيقة وتنسج الحقائق من خيوط الأحلام!.

* * *

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ـ د. ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ١٥١.
(٢) في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ص ٧٢.
(٣) من أفلاطون إلى ابن سينا ص ٨٠.